المحاضرة الحادية عشر
وسائل جمع البيانات

مقدمة
الأداة ترجمة للكلمة الانجليزية Technique وللكلمة نظائرها في مختلف اللغات ، استخدمها الباحثون للإشارة إلى الوسيلة التي تستخدم في البحث سواء أكانت تلك الوسائل متعلقة بجمع البيانات أو بعمليات التصنيف والجدولة ، وليس هدفنا في هذا الباب أن نعرض للوسائل بنوعيها، وإنما يختص هذا الباب بالنوع الأول وهو وسائل جمع البيانات.

ويرتبط مفهوم الوسيلة أو الأداة بالكلمة الاستفهامية بم ؟ فإذا تساءلنا بم يجمع الباحث بياناته؟ فإن الإجابة على ذلك تستلزم تحديد نوع الأداة اللازمة للبحث.

ويتوقف اختيار الباحث للأداة أو للأدوات اللازمة لجمع البيانات على عوامل كثيرة ، فبعض أدوات البحث تصلح في بعض المواقف والأبحاث عنها في غيرها، فمثلا يفضل بشكل عام استخدام المقابلة والاستبيان عندما يكون نوع المعلومات اللازمة له اتصال وثيق بعقائد الأفراد أو بشعورهم أو باتجاهاتهم نحو موضوع معين ، وتفضل الملاحظة المباشرة عند جمع معلومات تتصل بسلوك الأفراد الفعلي في بعض المواقف الواقعية في الحياة والتي يمكن ملاحظتها دون عناء كبير أو يمكن تكرارها بدون جهد، وتفيد الاختبارات السوسيومترية في دراسة أنواع معينة من السلوك الاجتماعي، كما تفيد الوثائق والسجلات في إعطائها المعلومات اللازمة عن الماضي ، وقد يؤثر موقف المبحوثين من البحث في تفضيل وسيلة على وسيلة أخرى ، ففي بعض الأحيان يبدى المبحوثون نوعا من المقاومة ، ويرفضون الإجابة على بعض أسئلة الباحث، وفى هذه الحالة يتعين استخدام الملاحظة في جمع البيانات.

وقد يعتمد الباحث على أداة واحدة لجمع البيانات، وقد يعتمد على أكثر من أداة أو وسيلة ، فيجمع بين طريقتين أو أكثر من طرق جمع البيانات حتى يدرس الظاهرة من جميع أنواعها، وليكشف عن طبيعتها بدقة ونجاح ، فقد يقتضى البحث مثلاً المقارنة بين ما يقوله الناس وبين ما يفعلونه ، وفى هذه الحالة يتعين على الباحث الاستعانة بالاستبيان أو المقابلة بالإضافة إلى الملاحظة.

هذا ويلاحظ أن هناك شبه اتفاق بين الباحثين على الأدوات التي يمكن استخدامها في جمع البيانات، وسنشير في هذا الباب إلى الأدوات الرئيسية التي يشيع استخدامها في البحث.

١- ماهية الملاحظة
الملاحظة وسيلة هامة من وسائل جمع البيانات، استخدمت في الماضي كما تستخدم في الحاضر لما لها من أهمية في الدراسة والبحث، وقد لجأت إليها الشعوب البدائية كما تلجأ إليها الشعوب المتحضرة لجمع المعلومات عن الأشياء والمواقف المحيطة بهم، وللتعرف على ظواهر الحياة ومشكلاتها، ولكن الملاحظة العلمية تختلف اختلافاً كبيرا عن الملاحظة غير العلمية، وقد سبق أن أشرنا إلى أن الملاحظة التي كانتا تقوم بها الشعوب البدائية من النوع البسيط الساذج الذي لا يهدف إلى الكشف عن حقيقة علمية محددة أو غاية نظرية واضحة ، وأدخلنا ذلك النوع من الملاحظة في نطاق المعرفة التجريبية التي وصفناها بأنها تقف عند بعض المواقف العلمية المحدودة والتي تبدو قاصرة تماماً في محيط التفكير النظري ومحاولة تفسير الظواهر وتعليلها بعكس الملاحظة العلمية التي يقوم فيها العقل بنصيب كبير في ملاحظة الظواهر وتفسيرها وإيجاد العلاقات القائمة بينها، هذا بالإضافة إلى أن الملاحظة العلمية لا تقتصر على مجرد الحواس ، بل تستعين بأدوات علمية دقيقة للقياس ضمانا لدقة النتائج وموضوعيتها من ناحية وتفاديا لقصور الحواس من ناحية أخرى.

هذا وقد كان لعلماء الأنثروبولوجيا في العصر الحديث فضل كبير في لفت أنظار الباحثين الاجتماعيين في الفروع الأخرى إلى أهمية الملاحظة كوسيلة هامة من وسائل جمع البيانات ، وكان لخصوبة المادة العلمية التي جمعوها عن الشعوب البدائية أثر كبير في توجيه أذهان الباحثين الاجتماعيين إلى استخدام نفس الأسلوب في البحث وخاصة في دراسة الجماعات الصغيرة.

وتتميز الملاحظة عن غيرها من أدوات جمع البيانات بأنها تفيد في جمع بيانات تتصل بسلوك الأفراد الفعلي في بعض المواقف الواقعية في الحياة بحيث يمكن ملاحظتها دون عناء كبير أو التي يمكن تكرارها بدون جهد ، ثم إنها تفيد في جمع البيانات في الأحوال التي يبدى فيها المبحوثون نوعا من المقاومة للباحث ويرفضون الإجابة على أسئلته، ومما يزيد في أهمية الملاحظة أن الباحث يستطيع أن يستخدمها في الدراسات الكشفية والوصفية والتجريبية ، ويجمع بيانات لها أهميتها بالنسبة لكل نوع من أنواع الدراسة.

ومع أهمية الملاحظة إلا أن هناك بعض الحالات التي لا يتيسر فيها استخدام هذه الوسيلة في البحث وهى الحالات الماضية ، وكذلك الحالات التي يرغب فيها الباحث في دراسة أنواع معينة من السلوك كالسلوك الجنسي أو بعض الأزمات والخلافات الأسرية، وكذا المواقف التي يصعب فيها على الباحث أن يتنبأ بأنواع السلوك المطلوب دراستها.

وكثيرا ما يكون العقل نفسه مصدر الخطأ في عملية الملاحظة إذ أنه يحاول ملء الثغرات – دون وعي – وفقا للخبرة والمعرفة السابقة ، ولذا يقول "جوته: إننا لا نرى إلا ما نعرفه"

وقد لا يلاحظ الإنسان من الظواهر إلا ما يتصل باهتمامه ، أو ما يتفق مع اتجاهاته وأغراضه.

ويحدث أيضا أن يخلط العقل بين الفكرة والواقعة بمعنى أن الوقائع قد لا تظهر كما هي، بل يحيلها العقل إلى أفكار مجردة ، وهذه الأفكار قد لا يكون لها أصل في الواقع فتكون من خلقه هو.

وعلى هذا فإن من الضروري أن يهتم الباحث باختيار وتدريب القائمين بالملاحظة حتى يستطيع الحصول على بيانات علمية بالمعني الدقيق، وينبغي على الباحث أن يحدد منذ البداية ما يأتي:-

١. الوقائع التي يجب ملاحظتها.
٢. كيفية تسجيل الملاحظات.
٣. الإجراءات التي يجب اتخاذها للتأكد من دقة الملاحظة.
٤. نوع العلاقة التي يجب أن تقوم بين الملاحظ والوقائع الملاحظة ، وكيفية تكوين هذه العلاقة.

وليس من شك في أن التحديد الدقيق للنقاط الأربعة السابقة يختلف تبعا لنوع الدراسة، فالدراسات التجريبية تستلزم أكبر قدر من الدقة ، على حين أن البحوث الكشفية تتطلب نوعا من المرونة أما الدراسات الوصفية فيمكن أن تقف موقفا وسطا بين الاثنين.

٢- أساليب الملاحظة

للملاحظة أساليب متعددة يتداخل بعضها في بعض، ويختلف بعضها عن بعض، ويمكن تصنيف هذه الأساليب على الرغم من تعددها في فئتين عريضتين هما:-

أولا : الملاحظة البسيطة :

يقصد بالملاحظة البسيطة ملاحظة الظواهر كما تحدث تلقائيا في ظروفها الطبيعية دون إخضاعها للضبط العلمي، وبغير استخدام أدوات دقيقة القياس للتأكد من دقة الملاحظة وموضوعيتها.

ويستخدم أغلب الناس هذا الأسلوب في التعرف على ظواهر الحياة المحيطة بهم، كما يستخدمه الباحثون الاجتماعيون في الدراسات الاستطلاعية لجمع البيانات الأولية عن جماعة معينة من الناس في بيئة معينة وتحت ظروف معينة من حيث أوجه نشاطهم ، وطرق معيشتهم كدراسة أوجه النشاط التي يمارسها طلبة مدرسة من المدارس، أو أنواع العلاقات التي تقوم بين جماعة من العمال في أحد المصانع أو دراسة حياة المهاجرين من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية أو ملاحظة أوجه النشاط التي يمارسها الأهالي في حي من الأحياء ، ويستخدم هذا الأسلوب أيضا في كثير من ميادين علم نفس الطفل وعلم نفس الشواذ، ففي علم نفس الطفل مثلا يقوم الباحث بملاحظة ألعاب الطفل في فترات مختلفة ليتبين ما

يعترى هذه الألعاب من تغيرات ، كما يلاحظ نمو اللغة عند الأطفال في مراحل السن المختلفة ، وفى علم نفس الشواذ يقوم عالم النفس بملاحظة الأنواع المختلفة لاضطراب الشخصية، والظروف التي تساعد على انتشار الأمراض النفسية والعقلية تمهيداً لدراستها دراسة أكثر تعمقاً وضبطاً.

ويمكن أن تتم الملاحظة بإحدى طريقتين :-

أ- الملاحظة بدون مشاركة:
وهي التي يقوم فيها الباحث بالملاحظة دون أن يشترك في أي نشاط تقوم به الجماعة موضوع الملاحظة وغالبا ما يستخدم هذا الأسلوب في ملاحظة الأفراد أو الجماعات التي يتصل أعضاؤها ببعض اتصالاً مباشراً، ومن مزاياه أنه يهيئ للباحث الأخطاء التي قد يقع فيها لو أنه استعان بأداة أخرى لجمع البيانات كالاستبيان ، إذ أن المبحوث قد لا يعبر عن رأيه تعبيراً صريحا، فيعطي الإجابات التي يظن أن الباحث يريدها أو يتوقعها.

ب- الملاحظة بالمشاركة:
وهى التي تتضمن اشتراك الباحث في حياة الناس الذين يقوم بملاحظتهم ومساهمته في أوجه النشاط التي يقومون بها لفترة مؤقتة وهي فترة الملاحظة ، ويستلزم هذا النوع من الملاحظة أن يصبح الباحث عضوا في الجماعة التي يقوم بدراستها وأن يساير الجماعة ويتجاوب معها، وأن يمر في نفس الظروف التي تمر بها، ويخضع لجميع المؤثرات التي تخضع لها ، ولا يكشف الباحث عن نفسه أو يفصح عن شخصيته ليظل سلوك الجماعة تلقائيا بعيدا عن التصنع والرياء، وقد يفصح عن شخصيته ويكشف عن غرضه وبمرور الوقت يألفه أفراد المجتمع ويصبح وجوده أمراً طبيعياً.

وقد شاع استخدام أسلوب الملاحظة بالمشاركة في ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية في دراسة الوحدات الاجتماعية الصغيرة كالأسرة والقبيلة ، وفى دراسة الوحدات الكبيرة كالقرية والمدينة، وهناك دراسات كثيرة استخدمت هذا الأسلوب مثل دراسة "ميدلتاون" التي أجراها روبرت ليند وهيلين ليند، ودراسة "كموديل" عن العلاقات الإنسانية داخل إحدى مستشفيات الأمراض العقلية بالولايات المتحدة، ودراسة أخرى عن حياة الموسيقيين ، وفى جمهورية مصر العربية دراسة الدكتور أحمد أبو زيد عن ظاهرة الثأر في إحدى قرى الصعيد سنة ١٩٥٨.

وتستلزم الملاحظة بالمشاركة أن تكون الطريقة التي يقدم بها الباحث نفسه لأفراد الجماعة مقبولة لأن أقل خطأ يقع فيه قد يؤدى إلى إخفاقه في مهمته، وفشله في إجراء دراسته ، ففي مواقف المقابلة مثلاً قد يفشل الباحث في الحصول على بيانات من أحد المبحوثين ، فيستعيض عنه بغيره، ولكن الأمر يصبح متعذرا بالنسبة لمجتمع بأسره.

وكثيرا ما تكون المجتمعات المحلية منقسمة على نفسها، وفى هذه الحالة ينبغي على الباحث ألا يظهر بمظهر المتحيز لإحدى الجماعات ، فإذا كان الباحث يجرى دراسة داخل الأحياء الوطنية في مدينة ما، أو يقوم ببحث في إحدى القرى أو في أحد المصانع، فإن من الضروري أن يكون حريصا في اتصالاته حتى يضمن تعاون الجميع معه في البحث، وحتى تكون البيانات التي يحصل عليها بعيدة عن التحيز فقد لوحظ في إحدى الدراسات مثلا أن الباحث كون علاقات قوية بأصحاب العمل دون العمال ، ولذلك كانت النتائج التي توصل إليها غير صادقة.

ومن الضروري أيضا أن يحدد الباحث من الأول درجة المشاركة التي يتطلبها البحث، فقيامه بدور معين في المجتمع قد لا يسمح له بالحصول على بيانات من أفراد في مركز أعلى أو أدني من المركز الذي يشغله، ولذا ينصح بعض المشتغلين بمناهج البحث بعدم مشاركة الباحث في نشاط المجتمع مشاركة كاملة وبضرورة إعلانه عن نفسه وإفصاحه عن شخصيته حتى يستطيع أن يجمع بيانات من أفراد الجماعة على اختلاف أوضاعهم ومستوياتهم، كما يسمح له ذلك بتوجيه ما يشاء من الأسئلة، لأن المروض أنه لا يعرف شيئا عن الجماعة التي يقوم بدراستها، هذا بالإضافة إلى أن القائم بدور في الجماعة قد لا يستطيع أن يكون صورة متكاملة عنها بالدرجة التي يستطيعها العضو الذي لا يشترك في نشاط الجماعة اشتراكا كاملاً، فالمتفرج يستطيع أن يلاحظ ما لا يلاحظه اللاعب ثم أن هناك مواقف تصبح فيها المشاركة الكاملة أمراً عسيرا كاشتراك الباحث في إحدى العصابات ومساهمته في نشاطها.

ولا يعني هذا أن المشاركة الكاملة غير مرغوب فيها دائماً، فهي ولا شك تسمح للباحث بملاحظة السلوك بصورة أكثر تلقائية وبدرجة ابعد ما تكون عن التصنع والزيف والرياء ، ثم أنها تهيئ للباحث فرصة التعمق في فهم مختلف المؤثرات التي تخضع لها الجماعة ، ويستطيع الباحث أن يحدد درجة المشاركة المرغوب فيها بالنسبة للمشكلة التي يدرسها، والظروف التي يمكن أن يعمل في ظلها، وترى "جاهودا" أن المشاركة الكاملة تكون ملائمة في حالتين هما حالة ما إذا كان المجتمع موضوع الملاحظة غير مألوف للقائم بالملاحظة، وحالة ما إذا كان المجتمع مألوفا تماماً لديه لدرجة تصعب معها الملاحظة إذا لم يتعمد القيام بدور مختلف يساعد على تنبيهه إلى ما قد لا ينتبه إليه في حياته اليومية.

موضوعات الملاحظة البسيطة

يستعان بالملاحظة البسيطة في الدراسات الاستطلاعية ولذا فإن الموضوعات التي تنصب عليها يجب أن تتميز بالمرونة والشمول وعدم التحديد الدقيق ، فلدراسة ظاهرة من الظواهر يتعين على الباحث أن يتجه أولاً إلى جمع اكبر قدر ممكن من المعلومات وذلك عن طريق ملاحظة جميع الظروف المحيطة بالظاهرة، ثم يتجه بعد ذلك إلى تضييق نطاق ملاحظاته فيقصرها على المواقف التي تهمه فقط، فإذا أراد الباحث مثلا أن يدرس العلاقات الاجتماعية بين العمال في أحد المصانع فإنه قد يبدأ بالذهاب إلى المصنع ، ويتجول بين الأقسام ويلاحظ العمال في عملهم أو في فترات الراحة ـ وقد يحضر اجتماعات مجلس الإدارة وفى ضوء الملاحظات الأولى التي يقوم بها يمكنه أن يحدد الموضوعات التي تهمه والمواقف التي تعنيه أكثر من غيرها ليقتصر عليها ملاحظاته التالية.

وعلى الرغم من أن الملاحظة البسيطة يعوزها التحديد الدقيق إلا أنها تتحدد إلى حد ما بالمشكلة موضوع الدراسة والموقف الاجتماعي الذي يحيط بها ، ويتضمن هذا الموقف أبعادا رئيسية وما على الباحث إلا أن يختار من بينها ما يتناسب مع أهداف دراسته ونعرض فيما يلي لهذه الأبعاد كما تقترحها "سيلتيز":-

١. المشتركون: من هم؟ وينبغي على الملاحظ أن يحصل على بيانات متعلقة بالأفراد من ناحية السن والجنس، ووضع الفرد في الموقف الذي يخضع للملاحظة ومكانة الفرد نفسه في المجتمع والأدوار التي يقوم بها، وما الصلة التي تربط بين الأعضاء؟ هل هم غرباء عن بعضهم البعض... هل سبق لهم التعارف.... هل هم أعضاء في جماعة واحدة؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما طبيعة هذه الجماعة ؟ نادي.... مصنع؟ وكم عدد المشتركين ؟ وما درجة الاختلاط أو العزلة التي تنشأ بينهم؟
٢. المكان : ما نوع المكان الذي يحدث فيه الموقف الاجتماعي ؟ تقاطع شارع .... مطعم ... مدرسة... رياض أطفال؟ وأي نوع من السلوك يمكن أن يتناسب مع المكان ؟
٣. الهدف : هل اجتمع الأفراد لغرض معين أم اجتمعوا مصادفة ؟ ولو كانت هناك أهداف محددة فما هي ؟ اشتراك في جنازة .... اشتراك في مناسبة دينية ... اجتماع إحدى اللجان .... اشتراك في حفلة ؟ وكيف يستجيب الأفراد بالنسبة للهدف الذي اجتمعوا من أجله ؟ تقبل... اعتراض؟ وهل هناك أهداف أخرى بالإضافة إلى الهدف الأصلي يسعون إلى تحقيقها ؟ وهل تتفق أهداف ورغبات الأفراد مع بعضها أم تتعارض؟
٤. سلوك الأفراد الاجتماعي: ماذا يفعلون المشتركون؟ كيف يتصرفون؟ ومع من ؟ وبأي الأساليب؟

وبالنسبة للسلوك الاجتماعي يجب أن يهتم الملاحظ بما يأتي:-

أ- ما هو الحادث المنبه أو الظروف المثيرة للسلوك ؟ وهل كان سلوك الأفراد عن قصد ؟ أم استجابة لظرف طارئ ؟
ب- ما هي الأسباب الظاهرة للسلوك ؟
ت- من هم الأفراد الذين كانوا هدفا للسلوك ؟
ث- ما نوع النشاط المرتبط بالسلوك..؟ حديث .. جرى.. إشارة.. جلوس؟
ج- ما هي الميزات العامة لهذا السلوك ؟ مدى استمراره .. غرابته وبعده عن المألوف ..تأثيره؟
ح- ما هي الآثار المترتبة عليه ؟ وما نوع السلوك الذي يتطلبه من الآخرين؟

٥. انتظام وتواتر الموقف الاجتماعي: متى حدث هذا الموقف؟ وما المدة التي استغرقها ؟ وهل هو موقف اجتماعي عادى متكرر أو موقف فردي فريد في نوعه؟ وما درجة توتر الموقف؟ وما الظروف التي تساعد على حدوثه ؟ وهل يعتبر الموقف نموذجا للمواقف المشابهة ؟ وإلى أي مدى ؟

تسجيل الملاحظة البسيطة

يتفق أغلب المشتغلين بمناهج البحث على أن من الأفضل أن يسجل الباحث ملاحظاته في نفس الوقت الذي تجري فيه الملاحظة حتى تقل احتمالات التحيز وضمانا لعدم النسيان، فبعض الأمور تضيع من الذاكرة عن طريق النسيان وبعضها الآخر قد تحرفه الذاكرة عامدة أو غير متعمدة، وقد يعتقد البعض أن المسائل الهامة لا تضيع أبدا من الذاكرة .

ويعارض البعض في تسجيل الملاحظات في حينها لأن ذلك قد يضايق الأفراد الذين تجرى عليهم الملاحظة أو يثير شكوكهم ، كما أن انهماك الملاحظ في التسجيل كفيل بأن يشتت انتباهه بين الملاحظة والتسجيل فتضيع منه حقائق قد تكون على جانب كبير من الأهمية ، ومن الممكن في مثل هذه المواقف التي يصعب فيها التسجيل أمام الأفراد موضوع الملاحظة أن يكتفي الباحث بكتابة بعض الكلمات أو النقاط الرئيسية على بطاقة خاصة معدة لهذا الغرض دون أن يثير انتباه أحد، وقد يترك الباحث موقف الملاحظة لفترة قصيرة يسجل فيها ملاحظاته بصورة أوفى ثم يعود لاستئناف ملاحظاته إذا لم يكن ذلك يؤثر على النتائج التي يحصل عليها.

ويختلف أسلوب التسجيل من باحث لآخر إلا أن من الضروري أن يكون هناك أسلوب متفق عليه، وهناك طريقتان يمكن استخدامها للتسجيل:-

أ- التسجيل الزمني للحوادث: أي ترتيبها بالنسبة لزمن حدوثها ويمكن أن يتم بالصورة التي نقترحها فيما يلي:

الوقت	الملاحظات	تفسير الملاحظات
١٠,٠٠	.....	.....
١٠,١٥	.....	.....
١٠,٣٠	.....	.....
١٠,٤٥	.....	.....
١١,٠٠	.....	.....

ب- تنظيم المادة الملحوظة في موضوعات أو فئات معينة ، ومن الأفيد أن يُعِد الباحث قائمة بالموضوعات أو الفئات التي يمكن استخدامها قبل ابتداء الملاحظة حتى يسهل عليه التسجيل وحتى لا يفوته شيء له أهميته.

ويستحسن دائما أن يجمع الملاحظ بين الطريقتين في التسجيل ولضمان دقة التسجيل ينبغي مراعاة ما يلي:-

١- عدم الخلط بين الحوادث الملحوظة وبين التفسيرات الشخصية حتى لا تختلط الحقائق الموضوعية بالجوانب الذاتية.
٢- يُفضل أن يكون هناك أكثر من ملاحظ يستخدمون نفس النظام في التسجيل للمقارنة بين ما سجلوه من ملاحظات واستبعاد ما لا يتفق عليه من بيانات أو تفسيرات.
٣- الاهتمام بتسجيل جميع التفاصيل ، فالأمور التي تبدو أمام الباحث غير مألوفة في بداية الملاحظة تصبح مألوفة لديه بمرور الوقت ولذا يجب العناية بتسجيلها قبل أن تفقد دلالتها وتصبح في نظره أمرا عاديا روتينياً.
٤- العناية بتحليل الملاحظات أولاً بأول ، فقد يتبين للباحث أن ملاحظاته لا تحيط بجميع جوانب الموقف، وفى هذه الحالة يمكنه أن يضيف فئات جديدة إلى الفئات التي سبق تحديدها ليجمع عنها بيانات قبل انتهاء الموقف الذي يخضع للملاحظة .

٥- عرض البيانات التي سجلها الباحث على أفراد يهمهم موضوع الدراسة والاستفادة بما يبدونه من ملاحظات في تعديل مواقف الملاحظة، أو حصرها في موضوعات رئيسية.

ثانيا : الملاحظة المنظمة

يختلف أسلوب الملاحظة المنظمة عن أسلوب الملاحظة البسيطة اختلافا يباعد بينهما من حيث الضبط العلمي والتحديد الدقيق ، فالملاحظة المنظمة تخضع للضبط العلمي سواء أكان ذلك بالنسبة للقائم بالملاحظة أو بالنسبة للأفراد الملاحظين أو بالنسبة للموقف الذي تجرى فيه الملاحظة ، كما أنها تنحصر في موضوعات محددة سلفاً ، وتقتصر على إجابة الأسئلة أو تحقيق الفروض التي وضعها الباحث ، ويشيع استخدام هذا الأسلوب في الدراسات الوصفية والدراسات التي تختبر فروضا سببية، لما تتميز به الملاحظة المنظمة من دقة وعمق وتركيز على حين أن أسلوب الملاحظة البسيطة لا يستخدم إلا في الدراسات الاستطلاعية كما ذكرنا سابقاً.

وتتم الملاحظة المنظمة إما في مواقف طبيعية بالنسبة لأفراد البحث وذلك بنزول الباحث بنفسه إلى حيث تجرى الظاهرة التي يدرسها على طبيعتها أو بملاحظة الظاهرة في جو المعمل الصناعي ، وكلما كان الموقف طبيعياً كانت النتائج أدق لأن كثيرا من الظواهر يتغير إذا لوحظ في جو المعمل الصناعي.

وتتم الملاحظة المنظمة بالمشاركة أو بدون مشاركة من جانب الباحث وفى الملاحظة بدون مشاركة يقوم الباحث بالاختباء وراء شاشة بصرية يستطيع من خلالها أن يرى الأشخاص الذين تجرى عليهم عملية الملاحظة دون أن يتمكن هؤلاء من رؤيته، أما في الملاحظة بالمشاركة فإن الباحث لا يستطيع أن يخفى حقيقة مهمته وهي القيام بالبحث، ومن الضروري أن يقدم نفسه للجماعة قبل بداية الملاحظة بطريقة مقبولة وأن يشرح الهدف الرئيسي من البحث.

وفى الإعداد للملاحظة ينبغي تحديد فئات الملاحظة تحديدا دقيقا بحيث يمكن تصنيف الظواهر الملحوظة وفقا لها، وليتسنى للقائم بالملاحظة جمع البيانات المتصلة بموضوع البحث فقط والتي يمكن أن تؤيد أو تكذب صحة الفرض الذي وضعه، كما ينبغي تحديد وحدات الملاحظة، والوحدة عبارة عن جملة بسيطة يمكن نسبها إلى إحدى الفئات، أما الجمل المركبة فإنها تشتمل في الغالب على أكثر من وحدة، ولذا فإن من الضروري تحديد حجم وحدة السلوك الذي يصنف في فئة، فقد يتراوح الحجم من فعل واحد يقوم به فرد واحد إلى كل الأفعال التي يقوم بها الفرد خلال زمن الملاحظة.

ولما كانت الملاحظة عملية انتقائية بمعني أن العقل لا يلاحظ من الظواهر إلا ما يتفق مع رغباته واتجاهاته ، ويستبعد الوقائع التي لا تتمشى مع هذه الرغبات والحاجات ، فإن من الضروري العمل على ضمان دقة الملاحظات وسلامتها، ولذا يستعان في الملاحظة المنظمة بعدد من الإجراءات سنشير إليها في الفقرة التالية للتأكد من دقة الملاحظات ، والبعد بها عن عوامل التحيز والانحراف.

وتستلزم الدقة العلمية القيام بتسجيل الملاحظات المنظمة في حينها للتقليل من احتمالات التحيز، وضمانا لعدم النسيان ، وليس التسجيل بأمرا هينا بل يحتاج إلى تدريب وإعداد ويقظة من جانب الباحث ، وتنطبق الكثير من الملاحظات التي سبق ذكرها فيما يتصل بتسجيل الملاحظة البسيطة على الملاحظة المنظمة، ولكن نظرا لأن الموقف موضع الملاحظة المنظمة يكون قد سبق تحديده تحديداً كافيا فإن تسجيل دقائق الملاحظة وتفاصيلها يمك نان يتم في ضوء الوحدات والفئات التي سبق تحديدها قبل البدء في عملية الملاحظة.

الوسائل المستخدمة في الملاحظة المنظمة:

يستعان في الملاحظة المنظمة بعدد من الإجراءات والوسائل التي تعين على الوصول إلى أكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، وتساعد على قياس الملاحظات بصدق ومن أمثلة هذه الوسائل المذكرات التفصيلية والصور الفوتوغرافية والخرائط

واستمارات البحث، كما يستعان أيضا بنظام الفئات ومقاييس التقدير والمقاييس السوسيومترية، وتشترك الملاحظة البسيطة مع الملاحظة المنظمة في استخدامها للمقاييس السابق ذكرها ، ونشير فيما يلي إلى هذه الوسائل بإيجاز:-

١. المذكرات التفصيلية:

يستلزم التسجيل الدقيق لموضوعات الملاحظة تدوينها أولا بأول في مذكرات وافية تشتمل على دقائق الموقف الاجتماعي ، ويمكن عن طريق هذه المذكرات فهم الظواهر والوقوف على العلاقات القائمة بين أجزائها ، كما يمكن الاستعانة بها والاستفادة منها في مواقف الملاحظة المتشابهة.

٢- الصور الفوتوغرافية:

يستخدم التصوير الفوتوغرافي في تحديد جوانب الموقف الاجتماعي كما يبدو في صورته الحقيقية لا كما يبدو أمام الباحث، وهو يجنب الملاحظ الخطأ الذي قد يحدث نتيجة لاختيار العقل للوقائع التي تتمشى مع رغباته دون غيرها ، كما أنه يسجل جميع التفاصيل المتعلقة بالظاهرة موضوع الدراسة والتي قد يغيب بعضها عن ذهن الملاحظ.

فإذا أراد الباحث مثلا أن يدرس الحياة الاجتماعية لإحدى الجماعات فإنه يستطيع أن يلتقط مجموعة من الصور تبين طرق العمل ونظام المعيشة ووسائل قضاء وقت الفراغ وأنواع العلاقات القائمة بين الأفراد وشكل المساكن وما إلى ذلك من جوانب البحث.

وتفيد الصور الفوتوغرافية أيضا في توضيح مدى التغير الذي يطرأ على حياة الأفراد والجماعات ، فلدراسة أحوال العمال المهاجرين إلى المناطق الحضرية مثلا يستطيع الباحث أن يبين مدى التغير الذي يطرأ على العمال وعلى أنظمة حياتهم بالرجوع إلى مجموعات من الصور تمثل حياتهم في المناطق التي هاجروا منها والمناطق التي هاجروا إليها حسب ترتيبها الزمني.

٣- الخرائط :

توضح الخرائط بدقة العلاقة بين البيئة الجغرافية وبين التنظيمات الاجتماعية القائمة بالمجتمع موضوع الدراسة ، كما تصور كثيرا من الجوانب التي تهم الباحث الاجتماعي كتوزيع السكان بالنسبة إلى توزيع الموارد الطبيعية وأماكن التجمعات السكانية ، وتوزيع المؤسسات الاجتماعية ، ودرجة تركز المشكلات الاجتماعية في المناطق الجغرافية.

٤- استمارات البحث:

تصمم استمارات البحث بحيث تحتوى وحداتها على العناصر الرئيسية والفرعية للظاهرة التي تخضع للملاحظة، فتهيئ للقائمين بالملاحظة فرصة استيفاء البيانات المتعلقة بهذه العناصر دون غيرها بطريقة موحدة.

وتفيد استمارات البحث في أن الملاحظات المدونة بها يمكن تجميعها في رتب ومجموعات يسهل تحويلها إلى بيانات رقمية قابلة للتحليل والتفسير في سهولة ويسر.

٥- نظام الفئات:

سبقت الإشارة إلى أن القائم بالملاحظة المنظمة يعمد إلى تصنيف السلوك في فئات تساعده على أن يصف الموقف الاجتماعي بصورة كمية ، ويبدأ الباحث عادة وفى ذهنه عدد كبير من الفئات ثم يضعها تحت الاختبار لإبعاد بعضها واستيفاء البعض الآخر، والفئة عبارة تصف طبقة معينة من الظواهر التي يصنف السلوك وفقاً لها، وغالبا ما يشمل النظام فئتين أو أكثر ، ويفيد نظام الفئات في أنه يمد القائمين بالملاحظة بإطار مرجعي موحد، كما يزيد من احتمال ملاحظة الجوانب الرئيسية في السلوك ملاحظة تتسم بالثبات.

ويوصي "بويلز" القائمين بالملاحظة بأن يعملوا على انتقاء موضوع كامل من الموضوعات المعروضة للمناقشة ليقوموا بتحليله بحيث تبدأ الملاحظة من المرحلة التي تحاول فيها الجماعة التعرف على الموضوع ويسميها مرحلة طلب المعلومات وإعطائها، إلى مرحلة تحديد هذا الموضوع إلى مرحلة اتخاذ قرار نهائي بشأنه.

وكان بيلز يسجل الملاحظات على شريط صوتي متحرك ثم يقوم بعد ذلك بتقسيمه بطريقة تسهل له عملية التحليل.

٦- مقاييس التقدير:

تستخدم مقاييس التقدير في تسجيل المواقف الاجتماعية بطريقة كمية، فإذا أراد القائم بالملاحظة مثلاً أن يسجل درجة مساهمة كل عضو من أعضاء الجماعة في المناقشة العامة فإنه يستطيع أن يستخدم مقياسا للتقدير، وهذا المقياس يقسم إلى درجات أو رتب متدرجة من الصفر إلى أي درجة يحددها الباحث ولتكن ٦ أو ١٠ بحيث يمثل الطرف الأول للمقياس الذي يبدأ من الصفر عدم المساهمة في المناقشة ، ويمثل الطرف الأخر المساهمة الكاملة في المناقشة ، أما بقية النقط فإنها تمثل درجات مختلفة من البعد الذي نلاحظه ويمكن وضع المقياس بهذه الصورة:

صفر ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠

لا يساهم مطلقا في المناقشة — يساهم مساهمة كاملة

وعند إعداد مقاييس التقدير ينبغي إعداد دليل يرشد بالملاحظة إلى الطريق السليم لتقدير العوامل المختلفة تقديراً صحيحا.

ومما هو جدير بالذكر أن النتائج التي نصل إليها باستخدام مقاييس التقدير لا تكون بنفس عمق النتائج التي نحصل عليها باستخدام نظام الفئات، إلا أن القائم بالملاحظة قد يلجأ إلى هذه المقاييس إذا كان الوقت ضيقاً وإذا كانت إمكانيات البحث محدودة.

٧- المقاييس السوسيومترية:

المقاييس السوسيومترية وسيلة توضح في بساطة وبمساعدة الرسم التكوين الكامل للعلاقات الكائنة في وقت محدود بين أفراد جماعة خاصة، وقد اقترح "مورينو" في سنة ١٩٣٧ هذه الوسيلة في قياس العلاقات الاجتماعية ولتقدير مدى الجذب والتنافر داخل جماعة معينة، وسنشير فيما بعد إلى هذه الطريقة بشيء من التفصيل.

الملخص

وفى النهاية نود أن نشير إلى أن من الضروري أن تكون موضوعات الملاحظة المنظمة محددة تحديداً دقيقاً ، وأن تجرى في نظام وترتيب، وأن تكون بعيدة عن التحيز، وأن تسجل أثناء القيام بها مع الاستعانة بالمقاييس التي تعين على ثبات وصدق النتائج، كما ينبغي على الباحث أن يكون يقظاً سليم العقل والحواس ، قادراً على فهم الموقف الاجتماعي ومقدراً للظروف التي تحيط به تقديراً سليماً، كما ينبغي ألا يلجأ إلى التعميم من ملاحظة واحدة أو بضع ملاحظات في موقف خاص على مختلف المواقف الاجتماعية.

أسئلة المحاضرة :

السؤال الأول :

((يتفق أغلب المشتغلين بمناهج البحث على أنه من الأفضل أن يسجل الباحث ملاحظاته في نفس الوقت الذي تجري فيه الملاحظة حتى تقل احتمالات التحيز وضمانا لعدم النسيان))
أذكرى / أذكر شروط ضمان دقة التسجيل التي ينبغي مراعاتها في الملاحظة .
السؤال الثاني :
((يستعان في الملاحظة المنظمة بعدد من الإجراءات والوسائل التي تعين على الوصول إلى أكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، وتساعد على قياس الملاحظات))
عدد / عددي هذه الوسائل مع الشرح

إجابة السؤال الأول:

يتفق أغلب المشتغلين بمناهج البحث على أن من الأفضل أن يسجل الباحث ملاحظاته في نفس الوقت الذي تجري فيه الملاحظة حتى تقل احتمالات التحيز وضمانا لعدم النسيان، فبعض الأمور تضيع من الذاكرة عن طريق النسيان وبعضها الآخر قد تحرفه الذاكرة عامدة أو غير متعمدة، وقد يعتقد البعض أن المسائل الهامة لا تضيع أبدا من الذاكرة .

ويعارض البعض في تسجيل الملاحظات في حينها لأن ذلك قد يضايق الأفراد الذين تجرى عليهم الملاحظة أو يثير شكوكهم ، كما أن انهماك الملاحظ في التسجيل كفيل بأن يشتت انتباهه بين الملاحظة والتسجيل فتضيع منه حقائق قد تكون على جانب كبير من الأهمية ، ومن الممكن في مثل هذه المواقف التي يصعب فيها التسجيل أمام الأفراد موضوع الملاحظة أن يكتفي الباحث بكتابة بعض الكلمات أو النقاط الرئيسية على بطاقة خاصة معدة لهذا الغرض دون أن يثير انتباه أحد، وقد يترك الباحث موقف الملاحظة لفترة قصيرة يسجل فيها ملاحظاته بصورة أوفى ثم يعود لاستئناف ملاحظاته إذا لم يكن ذلك يؤثر على النتائج التي يحصل عليها.

ولضمان دقة التسجيل ينبغي مراعاة ما يلي:-

عدم الخلط بين الحوادث الملحوظة وبين التفسيرات الشخصية حتى لا تختلط الحقائق الموضوعية بالجوانب الذاتية.

يُفضل أن يكون هناك أكثر من ملاحظ يستخدمون نفس النظام في التسجيل للمقارنة بين ما سجلوه من ملاحظات واستبعاد ما لا يتفق عليه من بيانات أو تفسيرات.

الاهتمام بتسجيل جميع التفاصيل ، فالأمور التي تبدو أمام الباحث غير مألوفة في بداية الملاحظة تصبح مألوفة لديه بمرور الوقت ولذا يجب العناية بتسجيلها قبل أن تفقد دلالتها وتصبح في نظره أمرا عاديا روتينياً.

العناية بتحليل الملاحظات أولاً بأول ، فقد يتبين للباحث أن ملاحظاته لا تحيط بجميع جوانب الموقف، وفى هذه الحالة يمكنه أن يضيف فئات جديدة إلى الفئات التي سبق تحديدها ليجمع عنها بيانات قبل انتهاء الموقف الذي يخضع للملاحظة .

عرض البيانات التي سجلها الباحث على أفراد يهمهم موضوع الدراسة والاستفادة بما يبدونه من ملاحظات في تعديل مواقف الملاحظة، أو حصرها في موضوعات رئيسية.

إجابة السؤال الثاني :

يستعان في الملاحظة المنظمة بعدد من الإجراءات والوسائل التي تعين على الوصول إلى أكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، وتساعد على قياس الملاحظات بصدق ومن أمثلة هذه الوسائل المذكرات التفصيلية والصور الفوتوغرافية والخرائط

واستمارات البحث، كما يستعان أيضا بنظام الفئات ومقاييس التقدير والمقاييس السوسيومترية، وتشترك الملاحظة البسيطة مع الملاحظة المنظمة في استخدامها للمقاييس السابق ذكرها ، ونشير فيما يلي إلى هذه الوسائل بإيجاز:-

١- المذكرات التفصيلية:

يستلزم التسجيل الدقيق لموضوعات الملاحظة تدوينها أولا بأول في مذكرات وافية تشتمل على دقائق الموقف الاجتماعي ، ويمكن عن طريق هذه المذكرات فهم الظواهر والوقوف على العلاقات القائمة بين أجزائها ، كما يمكن الاستعانة بها والاستفادة منها في مواقف الملاحظة المتشابهة.

٢- الصور الفوتوغرافية:

يستخدم التصوير الفوتوغرافي في تحديد جوانب الموقف الاجتماعي كما يبدو في صورته الحقيقية لا كما يبدو أمام الباحث، وهو يجنب الملاحظ الخطأ الذي قد يحدث نتيجة لاختيار العقل للوقائع التي تتمشى مع رغباته دون غيرها ، كما أنه يسجل جميع التفاصيل المتعلقة بالظاهرة موضوع الدراسة والتي قد يغيب بعضها عن ذهن الملاحظ.

٣- الخرائط :

توضح الخرائط بدقة العلاقة بين البيئة الجغرافية وبين التنظيمات الاجتماعية القائمة بالمجتمع موضوع الدراسة ، كما تصور كثيرا من الجوانب التي تهم الباحث الاجتماعي كتوزيع السكان بالنسبة إلى توزيع الموارد الطبيعية وأماكن التجمعات السكانية ، وتوزيع المؤسسات الاجتماعية ، ودرجة تركز المشكلات الاجتماعية في المناطق الجغرافية.

٤- استمارات البحث:

تصمم استمارات البحث بحيث تحتوى وحداتها على العناصر الرئيسية والفرعية للظاهرة التي تخضع للملاحظة، فتهيئ للقائمين بالملاحظة فرصة استيفاء البيانات المتعلقة بهذه العناصر دون غيرها بطريقة موحدة.

وتفيد استمارات البحث في أن الملاحظات المدونة بها يمكن تجميعها في رتب ومجموعات يسهل تحويلها إلى بيانات رقمية قابلة للتحليل والتفسير في سهولة ويسر.

٥- نظام الفئات:

سبقت الإشارة إلى أن القائم بالملاحظة المنظمة يعمد إلى تصنيف السلوك في فئات تساعده على أن يصف الموقف الاجتماعي بصورة كمية ، ويبدأ الباحث عادة وفى ذهنه عدد كبير من الفئات ثم يضعها تحت الاختبار لإبعاد بعضها واستيفاء البعض الآخر، والفئة عبارة تصف طبقة معينة من الظواهر التي يصنف السلوك وفقاً لها، وغالبا ما يشمل النظام فئتين أو أكثر ، ويفيد نظام الفئات في أنه يمد القائمين بالملاحظة بإطار مرجعي موحد، كما يزيد من احتمال ملاحظة الجوانب الرئيسية في السلوك ملاحظة تتسم بالثبات.

ويوصي "بويلز" القائمين بالملاحظة بأن يعملوا على انتقاء موضوع كامل من الموضوعات المعروضة للمناقشة ليقوموا بتحليله بحيث تبدأ الملاحظة من المرحلة التي تحاول فيها الجماعة التعرف على الموضوع ويسميها مرحلة طلب المعلومات وإعطائها، إلى مرحلة تحديد هذا الموضوع إلى مرحلة اتخاذ قرار نهائي بشأنه.

وكان بيلز يسجل الملاحظات على شريط صوتي متحرك ثم يقوم بعد ذلك بتقسيمه بطريقة تسهل له عملية التحليل.

٦- مقاييس التقدير:

تستخدم مقاييس التقدير في تسجيل المواقف الاجتماعية بطريقة كمية، فإذا أراد القائم بالملاحظة مثلاً أن يسجل درجة مساهمة كل عضو من أعضاء الجماعة في المناقشة العامة فإنه يستطيع أن يستخدم مقياسا للتقدير، وهذا المقياس يقسم إلى

درجات أو رتب متدرجة من الصفر إلى أي درجة يحددها الباحث ولتكن ٦ أو ١٠ بحيث يمثل الطرف الأول للمقياس الذي يبدأ من الصفر عدم المساهمة في المناقشة ، ويمثل الطرف الأخر المساهمة الكاملة في المناقشة ، أما بقية النقط فإنها تمثل درجات مختلفة من البعد الذي نلاحظه ومما هو جدير بالذكر أن النتائج التي نصل إليها باستخدام مقاييس التقدير لا تكون بنفس عمق النتائج التي نحصل عليها باستخدام نظام الفئات، إلا أن القائم بالملاحظة قد يلجأ إلى هذه المقاييس إذا كان الوقت ضيقاً وإذا كانت إمكانيات البحث محدودة.

٧- المقاييس السوسيومترية:

المقاييس السوسيومترية وسيلة توضح في بساطة وبمساعدة الرسم التكوين الكامل للعلاقات الكائنة في وقت محدود بين أفراد جماعة خاصة، وقد اقترح "مورينو" في سنة ١٩٣٧ هذه الوسيلة في قياس العلاقات الاجتماعية ولتقدير مدى الجذب والتنافر داخل جماعة معينة، وسنشير فيما بعد إلى هذه الطريقة بشيء من التفصيل.